النُّمُوُّ المَعْرِفِيُّ بَيْنَ إِشَارَاتِ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَنَظَرِيَّةِ (جان بياجيه)

الشيخ الدكتور هاشم ابو خمسين

جامعة المصطفى العالمية

فحوى البحث

البحث –كما يقول السيد الباحث –هو من نوع الدراسات المقارنة بين العلم والقرآن الكريم، وبالأخص، بين علم نفس النمو المعرفي وتقريرات القرآن الكريم. وقد سلط السيد الباحث الضوء على جانب خاص من النمو عند الانسان وهو النمو المعرفي العقلي –كما يعبَّر عنه احيانا، وليس النمو الجسدي العضوي، أو النمو الأخلاقي، او الاجتماعي.

وقد اختار في مقارنته هذه استاذَ هذا الفن ومؤسِّسَه، العالم الفرنسي (جان بياجيه) Jean Piaget (١٨٩٦– ١٩٨٠م)، لعرض ما قدمه من نظريات حول النمو المعرفي عند الانسان، ومقارنتها بما جاء به القرآن الكريم الذي سبق بياجيه بأكثر من أحد عشر قرناً.

تمهيد:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾

الحمد لله الذي خلقنا بأحسن تقويم والصلاة والسلام على الحبيب الامين محمد وعلى اله الطاهرين.

البحث من نوع الدراسات المقارنة بين العلم والقران الكريم وبالأخص بين علم النفس النمو المعرفي وبين القران الكريم.

لقد تطور علم النفس وخرج من مسائل علم الفلسفة لكثرة مطالبه وتفرعاته التي اوجبت له الاستقلال في علم خاص ومستقل بموضوع واهداف معينة. الا انه ولسرعة النمو والتطور فيه –وذلك لعظيم ما اودعه الله من امكانيات اسرار في فطرة الانسان – بدأت تستقل فيه علوم اخرى كثيرة جدا ومنها علم نفس النمو. ثم نمى علم النفس من خلال التدقيق والملاحظة والدراسات المختلفة و من تلاقحه مع العلوم الاخرى فنشأت مجموعة من العلوم الاكثر تخصصية كعلم النفس التربوي وعلم النفس النمو وغيرها.

ونحن في هذه الصفحات نريد ان نسلط الضوء على جانب خاص من النمو عند الانسان وهو النمو المعرفي او النمو المعرفي العقلي كما يعبر عنه احيانا. لا النمو الجسدي العضوي. او النمو الاخلاقي أو النمو الاجتماعي. ثم اخترنا استاذ هذا الفن ومؤسسه العالم الكبير جان بياجه لكي نعرض ما قدمه من نظريات حول النمو المعرفي عند الانسان وهذا ما خصصنا له الفصل الاول. ثم حاولنا ان نفتش عن رأي القران الكريم في النمو المعرفي العقلي عند الانسان وذلك من خلال البحث في الآيات الكريمة والتفاسير الرصينة و المعروفة باحثين عن مراحل النمو المعرفي عند الانسان في رأي القران وما يحيط به من ملاحظات. وذلك ما خصصنا له الفصل الثاني.

الفصل الاول: النمو المعرفي ومراحله عند جان بياجيه[1]

(١) جان بياجيه: Jean Piaget ولد ٩ أغسطس ١٨٩٦ –توفي ١٦ سبتمبر ١٩٨٠). كان عالم نفس وفيلسوفاً سويسرياً حصل علي الدكتوراه في علم

تمهيد: سنعمل في المحور الاول وبأختصار على ذكر اهم التعريفات اللازمة وذلك من اجل تحديد الموضوع وبيان دائرته. وعليه فسيشمل هذا الفص التعريف بظاهرة النمو في علم النفس واهم عناصرها وتعريف النمو المعرفي ثم تعريف علم النفس النمو والهدف منه ثم تعريف علم النفس المعرفي. وعرض لاهم مراحل النمو المعرفي. وأما المحور الثاني فهو مختص بنظرية جان بياجيه في النمو المعرفي والتعريف بها وبالمراحل التي اكتشفها.

المحور الاول: التعريفات اللازمة لبيان موضوع البحث:

اليك ايها القارئ الكريم اهم التعاريف المهمة والتي تدخل في التعريف بالمراد من النمو المعرفي في علم النفس.

تعريف النمو: يتعرض الإنسان لتغيرات وتطورات في النمو منذ لحظة الإخصاب وحتى مرحلة الشيخوخة ونهاية الحياة. ورغم أن الإنسان عبارة عن وحدة واحدة، إلا أن نمو الفرد العادي يمر بمراحل تتميز كل منها بخصائص معينة[٢].

فالنمو هو الارتقاء الكمي والكيفي للاشياء[٣]. و للنمو اتجاهان واضحان نمو جسمي ونفسي ونادرا ما نشاهد احدهما يستقل عن الاخر. الا في حالات قليلة كما التخلف العقلي او الثقافي او النضج الجسمي المبكر[٤]. ان النمو العقلي المعرفي في مستوياته التصاعدية يبدأ بالادراك

البيولوجية وفي عام ١٩٢١ عين مديرا للدراسات بمعهد جان جاك روسوفي جنيف، حيث نشر بعد ذلك كتابين من أشهر كتبه: كتاب: اللغة والفكر عند الطفل وكتاب: الحكم والاستدلال عن الطفل. وقد طور نظرية التطور المعرفي عند الأطفال فيما يعرف الآن بعلم المعرفة الوراثية. أنشأ بياجيه في عام ١٩٦٥ مركز نظرية المعرفة الوراثية في جنيف وترأسه حتى وفاته في عام ١٩٨٠. ويعتبر بياجيه رائد المدرسة البنائية في علم النفس.

(٢) سيكولوجية النمو الإنساني/ د. شفيق علاونه/ عمان/ الأردن/ دار الفرقان/ ٢٠٠١.

(٣) الفت حقي. سيكلوجية الطفل (علم نفس الطفولة). ص١٠. مركز الاسكندرية للكتاب. ١٩٩٦. مصر.

(٤) الفت حقي. سيكلوجية الطفل (علم نفس الطفولة). ص١٠. مركز الاسكندرية للكتاب. ١٩٩٦. مصر.

الحسي وينتهي بالذكاء[٥].

ومن الممكن ان نجد تعريفات للنمو كثيرة. نعرض لبعض منها وبأختصار:

يمكن تعريف النمو عموما: بأنه ما يحدث للكائن الحي من تغيرات كمية وزيادات في الحجم والبنية تبدأ مع بداية تكون البويضة الملقحة وتستمر حتى اكتمال النضج ومن المعروف أن هذه التغيرات الكمية يصاحبها ارتقاء في الوظائف النفسية التي تتمثل في تزايد القدرة على التعلم والتذكر والاستنتاج وحل المشكلات والإبداع والتوافق الاجتماعي والاستقرار الانفعالي والالتزام بأخلاق الجماعة أي أن النمو في الحجم يرافقها ارتقاء وتحسين في الوظائف التعليمية[٦].

ومن اهم عناصر النمو هو التغير التقدمي في الاعضاء وفي وظائفها. فهناك التغيير في النوع كما في تحويل الحيوان المنوي الى بويضة وجنين. والتغيير في العدد كما في الاسنان والتغيير في الحجم كما في الطول وفي الشكل كما في صورة الوجه او اعضاء الجسم. كما يلاحظ اطراد النمو في مختلف النواحي الجسمية والعقلية [المعرفية] والانفعالية والاجتماعية[٧].

تعريف النمو المعرفي: و يقصد بالنمو المعرفي هو نمو الوظائف العقلية المعرفية مثل الذكاء العام والقدرات العقلية المعرفية المختلفة كالعمليات العقلية العليا وكالإدراك والتذكر والانتباه والتخيل والتفكير والتحصيل[٨].

تعريف علم نفس النمو: وهو العلم الذي يتناول مظاهر النمو خلال المراحل المختلفة والمتتابعة فيدرس النمو الجسمي

(٥) فؤاد البهي السيد. الاسس النفسية للنمو، ص١٠٩، دار الفكر العربي. ط١. ١٩٥٦، مصر.

(٦) سيكولوجية النمو/ دكتورة حنان عبد الحميد العناني –دكتور عبد الجابر يتم – محمد حسن الشناوي/ عمان/ الأردن/ دار الصفاء/ ٢٠٠١.

(٧) كامل محمد محمد عويضة. علم نفس النمو. ص١٩. دار الكتب العلمية. ١٩٩٦،بيروت.

(٨) كامل محمد محمد عويضة. علم نفس النمو. ص١٣١. دار الكتب العلمية. ١٩٩٦،بيروت.

والفسيلوجي. والنمو العقـــلي والنمو الانفعالي والنمو الاجتماعي. وان كان علم النفس يتناول بصفة عامة دراسة وفهم السلوك وضبطه وتوجيهه والتنبؤ به. فان علم النفس النمو يتناول فهم سلوك الفرد وضبطه والتنبؤ به. وهو ينمو منذ بدء حياته حتى نهايتها[٩].

يهدف علم نفس النمو الى دراسة نمو الكائن الحي في مراحله المختلفة. ويلقي الضوء على الخصائص السيكلوجية لكل مرحلة من مراحل النمو لدى الانسان منذ بدء نشأته خلية في بطن امه حتى نهاية وجوده[١٠].

- **تعريف علم النفس المعرفي:**

هو احد فروع علم النفس العام الذي يعالج نماذج السلوك الانساني في مجالات حياة الانسان المختلفة والتي تتجاوز حاليا اكثر من خمسين فرعا. وان الظواهر النفسية والسلوكية التي تصدى لها هذا العلم جعل من علم النفس احد العلوم المتجددة والمتطورة[١١].

ينمو الدماغ بشكل متسارع خلال مراحل الحمل المختلفة حيث يعتبر الدماغ اول ما ينمو من جسم الجنين وفقا لقانون السياق الرأسي في النمو. ومع نمو الدماغ عبر مراحل العمر المختلفة يصبح اكثر تعقيدا واكثر تخصصية. وان اكثر اجزاء الدماغ تطورا عند الولادة هو الدماغ الاوسط واقلها تطورا هو القشرة الدماغية حيث انها الجزء الاكثر ارتباطا مع الأنشطة المعرفية[١٢]. و تتطور الحياة العقلية والمعرفية للمراهق تطورا ينحو بها نحو التمايز والتباين توطئة لإعداد الفرد للتكيف الصحيح لبيئته المتغيرة المعقدة. وهكذا تكتسب حياة الفرد الوانا عدة خصبة تساير في جوهرها تباين المستويات

(٩) كامل محمد محمد عويضة. علم نفس النمو. ص١٧. دار الكتب العلمية. ١٩٩٦،بيروت.

(١٠) كامل محمد محمد عويضة. علم نفس النمو. ص١٧. دار الكتب العلمية. ١٩٩٦،بيروت.

(١١) عدنان يوسف العتوم. علم النفس المعرفي. ص٢١. دار المسيرة للنشر. ٢٠٠٤. عمان.

(١٢) عدنان يوسف العتوم. علم النفس المعرفي. ص٦١ -٦٢. دار المسيرة للنشر. ٢٠٠٤. عمان.

الواحدة في المجتمعات المحلفة. وتفاوت المستويات العدة في المجتمع الواحد. وتساير حياة الفرد الحياة الانسانية نفسها في تنظيمها في تنظيمها العام. وفي تباينها وتفاوتها واختلافها وتنوعها وخصوبة ميدانها[١٣].

وخلاصة نظرية بياجه هي: انه ذهب إلى أن إدراك الكائن البشري للعالم حوله ينمو عبر أربع مراحل، هي كالتالي:

١. المرحلة الحسية الحركية.
٢. المرحلة الحدسية.
٣. المرحلة العينية.
٤. المرحلة التجريدية[١٤].

فقد ركز بياجية على النمو المعرفي. واهتم بدراسة نمو المفاهيم الأساسية عند الطفل مثل مفهوم الزمان. مفهوم المكان. مفهوم العدد. مفهوم المساحة.

وينظر بياجية إلى التطور المعرفي من زاويتين هما: البنية العقلية. و الوظائف العقلية.

فبعد ان لاحظ [بياجه] التداخل الشديد بين الحركة وبين الادراك افرد السنتين الاولى والثانية من عمر الطفل على انها مرحلة الحس –حركية وفيها يميز الطفل بين نفسه وبين الاشياء. وحيث انه لم يتعلم اللغة بعد فإن وسيلته في فهم الاشياء هي معاملتها بيده. ومن العام الثاني الى الرابع ينتقل الطفل الى مرحلة التفكير الاناني. بحيث يتعذر عليه فهم وجهة نظر الاخرين. وكل همه مايريده هو. ومن العام الرابع الى السابع يمر الطفل بمرحلة الحدس، وفيها تظهر قدرة الطفل على التميز بين تقسيمات الاشياء ورتبها. ولكنه يصل الى هذا التفريق بالحدس والتخمين لا بالقياس او المناظرة ثم يتطور بحيث يمكن الحكم على الفروق في الاحجام (٥ سنوات) والاوزان (٦ سنوات) والسعة والمسافات (٧ سنوات). ويكون بهذا قد انتقل الى العمليات المحسوسة (٧ –١١سنة) حيث يستخدم المنطق. ويمكنه استخدام العمليات

(١٣) فؤاد البهي السيد. الاسس النفسية للنمو، ص٢٠٥، دار الفكر العربي. ط١. ١٩٥٦، مصر.

(١٤) كمال شاهين. قصة جان بياده وعلم النفس الادراكي. ص٨. منشورات مركز تطوير الفقه الإسلامي. ٢٠١٣.

الحسابية الاكثر تعقيدا. وتصبح له القدرة على تصنيف الاشياء وسلسلة الحوادث. واخيرا يصل الى مرحلة العمليات المعقدة (١١ -١٥سنة) وفيها تظهر قدرته على التجريد وتكوين المفاهيم بالاضافة الى البرهنة على النظريات[١٥].

الفصل الثاني:

النمو المعرفي ومراحله في القرآن الكريم:

مقدمة: نظرية الفلاسفة الإسلاميين في مراحل المعرفة:

تعترف الفلسفة الإسلامية بوجود معرفة عقلية وراء المعرفة الحسيّة والتجريبية، وقد قصرت سائر الفلسفات عن إدراكها ومراحل تلك المعرفة هي كما يلي:

١. المعرفة الحسيّة:

تنقسم المعرفة على حسيّة وعقلية، والحسيّة عبارة عن المعرفة السطحية المشتركة بين الإنسان والحيوان، بل ربما تكون في الحيوان أقوى منها في الإنسان، فالعُقاب يرى الأشياء البعيدة جداً الّتي لا تنالها أبصار غيره، والكلاب تشمّ الروائح الخفية، والخفافيش تحسّ الموانع في الليالي الظلماء، فتتجنّبها... وعلى كلّ تقدير فالمعرفة الحسيّة الّتي تقوم بالحواس الظاهرية تعمّ الإنسان وغيره.

٢. المعرفة العقلية:

المعرفة العقلية هي المفاهيم الكلية التصورية أو القضايا الكلّيّة التصديقية الّتي ينالها العقل في ظل عمليات خاصة. فالانتقال إلى مفهوم الإنسان الكلّي من مشاهدة عدّة أفراد متماثلة، معرفة عقلية تصورية، كما أنّ انتزاع قاعدة كليّة (كانصهار الحديد عند درجة خاصة) من عمليات تجريبية متكررة، معرفة عقلية تصديقية.

وقد أوضحنا فيما تقدّم كيفية انتقال الإنسان إلى المفاهيم والقوانين الكليّة، غير أنّ هناك غموضاً في كفية صنع الكليات من مشاهدة الجزئيات، والرابطة المنطقية القائمة بين المعرفة الحسيّة والمعرفة العقلية. فانّ الإنسان عندما يطل بنظره إلى أفراد محدودة، كيف يصنع منها مفهوماً

(١٥) الفت حقي. سيكلوجية الطفل (علم نفس الطفولة). ص٢٧. مركز الاسكندرية للكتاب. ١٩٩٦. مصر.

كلّياً يشملها وغيرها؟. أو أنّه عندما يجري عملية التجربة على عناصر خاصة، كيف يصنع منها قاعدة كلية تعم ما جرّبه وغيره[١٦]؟.

المحور الاول:

الاشارات القرآنية للنمو الانساني المعرفي عند الانسان:

يقول الدكتور عبد الستار سمير الرجب و إن مراحل النمو النباتي ذكرت في القرآن الكريم في آيات عدة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[سورة الزمر: ٢١][١٧]. كما يتصل [اسم الله {تبارك} والذي هو من الاسماء الحسنى] في مقام الخليقة بأنّها في حالة نموّ و تكامل مستمر، لأنّ خالقها يعطيها بركة تلو أخرى، ممّا يدلّ على أنّ مسيرة الخلق تصاعدي[١٨].

ولقد بعث الله الانبياءﷺ من منتهى الكمال الى البشر رحمة منه تعالى. وليست وظيفة هؤلاء المرسلين إلّا حمل الرسالة الربانية إلى المرسل إليهم دونما زائد أو ناقص، نقلا لهم إلى الرشد العقلي و المعرفي، دون ادعاء أن لهم ما لله من شؤون، و لا ضرب بهم في تيه الفلسفات الّذهنية و المجادلات اللاهوتية المختلقة، التي استنفدت طاقات الإدراكات البشرية أجيالا بعد أجيال[١٩].

و في العصر الذي تنزّل فيه القرآن مخبرا عن مراحل التّخلّق البشري بمصطلحات دقيقة تنطبق مع قواعد المعرفة الحديثة و مثبتا أنّ تخلق الجنين و تطوره يتم على مراحل و أطوار حيث يقول تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ

(١٦) الشيخ جعفر السبحاني. نظرية المعرفة. ص: ١٩٩ -٢٠٣. مؤسسة الامام الصادق. ١٤٩٢هـ. قم.

(١٧) خالد فائق العبيدي. النبات و الإنبات و الحيوانات و الحشرات. ج٧،ص: ١٧، دار الكتب العلمية. ١٤٢٦ هـ. بيروت.

(١٨) السيد محمد تقي المدرسي. من هدى القرآن، ج١٦، ص: ١٣٧، دار محبي الحسين. ط١. ١٤١٩هـ. طهران.

(١٩) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج١٠، ص: ٣٣، منشورات الثقافة الاسلامية. ط٢. قم.

﴿وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [سورة نوح: ١٤][٢٠]. و قال ابن عبّاس و قتادة و عكرمة و السدي و ابن زيد: معناه من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة... إلى آخر أطوار الإنسان[٢١].

وهناك مجموعة من الايات التي يمكن ان نجعلها مدخلا وتمهيدا لبحثنا هذا. نجدها تشير الى نمو الانسان و وجود قوة النمو فيه ولعل من تلك الايات:

اولا: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ تشير الاية الى النمو في الانسان[٢٢].

ثانيا: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي خلق كلّ واحد منكم تارات متنوّعة، و ذلك في ما تعبر عنه الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل العظمي إلى الخلق الكامل، أو في ما تعبر عنه مراحل النموّ الإنساني من الطفولة إلى الشباب، إلى الشيخوخة[٢٣].

ثالثا: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي أطفالا و إنّما أفرد لارادة الجنس و الجنس يصدق على الكثير، أو على تأويل و يخرج كلّ واحد منكم، أو لأنّه في الأصل مصدر و هو في هذا المنزل في التزايد و النموّ قوّة و كمّا، فيكمل قواه و يزيد مقداره شيئا فشيئا بحسب ما يقتضيه الطبيعة فيلقى الأشياء بذهن ضعيف و معرفة ناقصة ثمّ لا يزال يتزايد في المعرفة قليلا قليلا و شيئا بعد شيء حتّى يألف الأشياء و يتمرّن عليها و يصل إلى غايته و يخرج من حدّ الحيرة فيها إلى التصرّف في المعاش بعقله[٢٤].

رابعا: و قوله ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

(٢٠) يوسف الحاج احمد. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن و السنة. ص: ١١٢.
(٢١) محمد هادي معرفة. التمهيد في علوم القرآن، ج٦، ص: ٨٠.
(٢٢) وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج، ج٢٢، ص٢٩٠. دار الفكر ١٤٢٢ هـ. بيروت.
(٢٣) السيد محمد حسين فضل الله. تفسير من وحي القرآن، ج٢٣، ص: ١٢، دار الملاك للطباعة. ط٢. ١٤١٩ هـ، بيروت.
(٢٤) المولى صالح المازندراني. شرح الكافي- الأصول و الروضة. ج١، ص: ١٣٠، تحقيق ابوالحسن الشعراني. المكتبة الاسلامية. ط١، ١٣٨٢هـ. طهران.

ففي الآيـة إشـارة إلى أن المراحـل التي يقطعها الإنسان في مسيره إلى ربه مترتبة متطابقة[٢٥]، فقيل ان معناه منزلة عن منزلة و طبقة عن طبق و قيل: معناه حالا عن حال من أحياء و إماتة، ثم أحيا[٢٦]، من النطفة الى الطفولة الى سن الشباب والهرم[٢٧] و قيل: درجة بعد درجة، و رتبة بعد رتبة، في القرب من اللهّ و رفعة المنزلة، و قيل: المعنى: لتركبنّ حالا بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها في الشدّة، و قيل المعنى: لتركبنّ أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم حيا و ميتا و غنيا و فقير[٢٨]. فجميع البشر خاضعين لقانون لتطور العام والـذي يشمل التطور والنمو المعرفي العقلي.

المحور الثاني:

المراحل الثلاث العامة للنمو المعرفي:

يمكن تقسيم مراحـــل النمو المعرفي للانسان على ثلاث مراحل؛ استنادا الى التقسيم العام للنمو في الانسان الذي تشير اليه آية المراحل الثلاث وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [سورة الروم: ٥٤]، وبالتالي سيكون الانسان من الجهة المعرفية عابرا لثلاث مراحل هي:

المـــــرحلة الاولى: مرحلة الضعف المعرفي والعقلي. وهي مرحلة الطفولة مرحلة سرعـة وسهولة التعلم وقـوة الحفظ.

المـــرحلة الثانية: مرحلة القوة في المجال المعرفي والعقلي. وهي مرحلة ما بعد الطفولة الى كمال الرشد و وصول قوة التفكير ولذاكرة الى قمتها.

المـــرحلة الثانية: مرحلة الضعف المعـــــرفي والعقلي الثانية (التنكيس).

(٢٥) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج٢٠، ص: ٢٤٧،مؤسسة النشر الاسلامي. ط ٥. ١٤١٧هـ. قم.

(٢٦) الشيخ محمد بن الحسن الطوسي. التبيان في تفسير القرآن، ج١٠، ص: ٣١. دار احياء التراث العربي، بيروت.

(٢٧) علي اكبر القرشي. تفسير أحسن الحديث، ج١٢، ص: ١٥، مؤسسة البعثة. ط٣. ١٤١٩هـ. طهران.

(٢٨) محمد بن علي الشوكاني. فتح القدير، ج٥، ص: ٤٩. دار ابن الكثير. ١٤١٤هـ. بيروت.

وهي مرحلة النزول والضعف الحفظي والعلمي من الرشد باتجاه الشيخوخة.

المحور الثالث:
المراحل الخاصة للنمو المعرفي
في الاشارات القرانية

تمهيد: قد يكون هذا المحور هو مركز القلب من البحث وهو زبدته. وقد وجدنا النمو المعرفي ومراحله مشاراً اليها في القران وفي تفاسير المسلمين بشكل متناثر ولم تدرس القضية دراسة موضوعية تخصصية مركزة. فقمنا بجمع ما وجدناه حول الموضوع مشيرين اليه بالنقاط التالية:

اولا: هناك طائفة من الآيات التي تشير الى جعل و غرز بعض الحواس في اصل خلقة الانسان. اخترنا منها على سبيل المثال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٧٨].

إذ يظهر من الآية ان الله هو الذي بذر تلك الحاستين في خلقة الانسان، و بعد هاتين الحاسّتين اللتين هما مفتاح الإدراك لعالم المادّة، يأتي العقل الذي ينتزع الأفكار ممّا تموّنه به الحواسّ، و يجتاز الطبيعة إلى ما وراءها، و مهمّته النقد و الاستنتاج و الترتيب و التعميم و تحليل محصّلة حاسّتي البصر و السمع[٢٩].

ويقول العلامة الطباطبائي في تفسير الآية: ثم يرقى بفؤاده أي بتعقله إلى ما فوق المحسوسات و الجزئيات فيتعقل الكليات فيحصل القوانين الكلية، و يغور متفكرا في العلوم النظرية و المعارف الحقيقية، و ينفذ بسلطان التدبر في أقطار السماوات و الأرض[٣٠]. وبذلك لاحظنا اشارة المفسرين الى النمو العرفي في هذه الآية.

ثانيا: تصور ثان لمرحل النمو المعرفي في القرآن: وذلك من خلا قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [سورة الحديد: ٢٠].

فالآية ترسم بوضوح وضع الحياة

(٢٩) الشيخ مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص: ٤٨٨.

(٣٠) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص: ٥.

الدنيا و المراحل المختلفة [ومنها المراحل المعرفية] و المحفّزات و الظروف و الأجواء التي تحكم كلّ مرحلة من هذه المراحل، حيث يقول سبحانه: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَلِ وَالْأَوْلَدِ ﴾.

و بهذه الصورة فإنّ «الغفلة» و «اللهو» و «الزينة» و «التفاخر» و «التكاثر» تشكّل المراحل الخمس لعمر الإنسان.

ففي البداية مرحلة الطفولة، و الحياة في هذه المرحلة عادة مقترنة بحالة من الغفلة و الجهل و اللعب.

ثمّ مرحلة المراهقة حيث يأخذ اللهو مكان اللعب، و في هذه المرحلة يكون الإنسان لاهثا وراء الوسائل و الأمور التي تلهيه و تبعده عن الأعمال الجدّية.

و المرحلة الثالثة هي مرحلة الشباب و الحيوية و العشق وحبّ الزينة.

و إذا ما تجاوز الإنسان هذه المرحلة فإنّه يصل إلى المرحلة الرابعة حيث تتولّد في نفسه دوافع العلو و التفاخر.

و أخيرا يصل إلى المرحلة الخامسة حيث يفكّر فيها بزيادة المال و الأولاد و ما إلى ذلك.

و المراحل الاولى تشخّص حسب العمر تقريبا، إلّا أنّ المراحل اللاحقة تختلف عند الأشخاص تماما، و البعض من هذه المراحل تستمر مع الإنسان إلى نهاية عمره، كمرحلة جمع المال، و بالرغم من أنّ البعض يعتقد أنّ كلّ مرحلة من هذه المراحل الخمس تأخذ سنين من عمر الإنسان مجموعها أربعون سنة[٣١]، حيث تتثبّت شخصية الإنسان عند وصوله إلى هذا العمر.

كما أنّ بعض الأشخاص يمكن أن تتوقّف شخصيتهم في المرحلة الاولى و الثانية حتّى مرحلة الهرم، و لذا فإنّ

(٣١) ولعله اشارة الى تفسير قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [سورة الاحقاف: ١٥].
وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين و الأربعين. و الأربعون هي غاية النضج و الرشد، و فيها تكتمل جميع القوى و الطاقات، و يتهيأ الإنسان للتدبر و التفكر في اكتمال و هدوء. (راجع السيد بن قطب الشاذلي. في ظلال القرآن. ج٦، ص: ٣٢٦٢.

سمات هذه المرحلة تبقى هي الشاخصة في سلوكهم و تكوين شخصياتهم، حيث اللعب و الشجار و اللهو هو الطابع العامّ لهم، و تفكيرهم منهمك للغاية في تهيئة البيت الأنيق و الملابس الفاخرة و غير ذلك من متع الحياة الدنيا حتّى الموت.. إنّهم أطفال في سنّ الكهولة، و شيوخ في روحية الأطفال.

و يذكر سبحانه مثالا لبداية و نهاية الحياة و يجسّد الدنيا أمام أعين الناس بهذه الصورة حيث يقول سبحانه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾.

«كفّار» هنا ليس بمعنى الأشخاص غير المؤمنين، و لكن بمعنى «الزرّاع» لأنّ أصل الكفر هو التغطية، و بما أنّ الزارع عند ما ينثر البذور يغطّيها بالتراب، فقد قيل له كافر، و يقال أنّ «الكفر» جاء بمعنى القبر أحيانا، لأنّه يغطّي جسم الميّت كما ورد في [سورة الفتح:٢٩].

و في الحديث عن النمو السريع للنبات يقول تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ إذ وردت هنا كلمة «الزرّاع» بدلا من الكفّار[٣٢].

ثالثا: مرحلة الاشتداد العقلي: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [سورة الانعام: ١٥٢]، أي حتى يقوى و يكمل عقل[٣٣].

و قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ان (اشدّ) معناه الاستحكام الجسماني و الروحاني، و بلوغ الرشد معناه الوصول الى هذه المرحلة، و لكن هذا العنوان قد عبّر عنه القرآن الكريم في مراحل مختلفة من عمر الإنسان.

فتارة أطلقه على سنّ البلوغ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾[سورة الاسراء: ٣٤]. و تارة يرد هذا المعنى في وصول الإنسان الى أربعين سنة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [سورة الاحقاف: ١٥]، و تارة يراد به ما قبل مرحلة الشيخوخة و الكبر، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا

(٣٢) الشيخ مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٥٥.
(٣٣) الشيخ محمد السبزواري. الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج٣، ص: ١٠.

﴿أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾.

و لعل هذا التفاوت في التعبيرات آت من طيّ الإنسان مراحل مختلفة لاستحكام الروح و الجسم، و لا شكّ ان الوصول الى سنّ البلوغ واحد من هذه المراحل.

و بلوغ الأربعين الذي يكون توأما للنضج الفكري و العقلي مرحلة ثانية، كما ان المرحلة الثّالثة تكون قبل ان يسير الإنسان نحو قوس النّزول و يبلغ الضعف و الوهن!. و على كل حال فإنّ المقصود في الآية -محل البحث -هو مرحلة البلوغ الجسمي و الروحي الذي ظهر في يوسف بداية شباب[٣٤].

ولكن هناك من المفسرين من لا يرى لتحديد سن الاربعين مدخلا. لكي نحددها كمرحلة نمو معرفي خاتمة. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشتد به قوى بدنه و تتقوى به أركانه بذهاب آثار الصباوة، و يأخذ ذلك من ثمانية عشر من عمره إلى سن الكهولة التي عندها يكمل العقل و يتم الرشد.

و الظاهر أن المراد به الانتهاء إلى أول سن الشباب دون التوسط فيه أو الانتهاء إلى آخره كالأربعين، و الدليل عليه قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [سورة القصص: ١٤] حيث دل على التوسط فيه بقوله: «اسْتَوى»، و قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥] فلو كان بلوغ الأشد هو بلوغ الأربعين لم تكن حاجة إلى تكرار قوله: ﴿بَلَغَ﴾.

فلا مجال لما ذكره بعضهم: أن المراد ببلوغ الأشد بلوغ الثلاثين أو الثلاث و الثلاثين، و كذا ما قاله آخرون إن المراد به بلوغ الأربعين و هو سن الأربعين. على أن من المضحك أن تصبر امرأة العزيز عن يوسف مدى عنفوان شبابه و ريعان عمره حتى إذا بلغ الأربعين من عمره و أشرف على الشيخوخة تعلقت به و راودته عن نفسه[٣٥].

(٣٤) الشيخ مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص: ١٧٤.

(٣٥) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في

رابعا: مرحلة الحُلُم: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [سورة النور: ٥٩] يقول الراغب الاصفهاني –من الجهة اللغوية –الحلم: ضبط النفس و الطبع عن هيجان الغضب، و جمعه أحلام–أم تأمرهم أحلامهم –قيل معناه عقولهم، و ليس الحلم في الحقيقة هو العقل، لكن فسّروه بذلك لكونه من مسبّبات العقل[٣٦]. و كلمة «الحلم» على وزن «كتب» بمعنى العقل و الكناية عن البلوغ، الذي يعتبر توأما لطفرة عقلية و فكرية، و مرحلة جديدة في حياة الإنسان[٣٧]، ويسمى العقل حلما لأنه استقامة التفكر، و منه أيضا الحلم لزمان البلوغ قال تعالى. ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾. أي زمان البلوغ، بلوغ العقل، و منه الحلم بكسر الحاء بمعنى الأناءة ضد الطيش و هو ضبط النفس و الطبع عن هيجان الغضب و عدم المعاجلة في العقوبة فإنه إنما يكون عن استقامة التفكير[٣٨].

خامسا: تصور آخر لمراحل المعرفة: ذكر اللّه سبحانه في هذه الآيات ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الروم: ٢١ –٢٤] أربع جمل عقب كل آية، و لعلّها تخبر عن مراحل المعرفة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ

تفسير القرآن، ج١١، ص: ١١٨..

(٣٦) الراغب الاصفهاني. مفردات غريب القران. مادة «حلم».

(٣٧) الشيخ مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ١٦.

(٣٨) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج١١، ص: ١٨٨.

لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فنحن بحاجة إلى الفكر و العلم و السماع و العقل.

فنحن نفكّر حتى نحصل على العلم، و العلم يدعونا للاستفادة من علوم الآخرين عبر سماع علومهم و أخبارهم، و عند ما نجمع علومنا إلى علومهم آنئذ نعقل، و عند ما نعقل نصبح مؤمنين باللهّ عزّ و جلّ، لأننا نستطيع أن نستوعب آياته و نتوصّل بها إليه[٣٩].

المحور الرابع:

ملاحظات مع المراحل المعرفية في القرآن

ونريد في هذا المحور ان نسجل الملاحظات التي صادفتنا خلال البحث عن مراحل النمو المعرفي والعقلي في القران الكريم. فهي ملاحظات لا تقل اهمية عن بيان نفس مرحل النمو المعرفي في القران الكريم. فهي مكملة وقد كون مؤسسة له ايضا. وهي في نقاط كما يلي:

١. مرحلة الافول المعرفي: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾. تدل على بعض ان الناس لا كل البشرية يمرون بمرحلة فقد المعلومات والنسيان في فترة متأخرة من العمر وقد تكون هذه اشارة الى مرض الزهايمر.

٢. ان قوة النمو المعرفي بيد الله (من حيث الاصل ومن حيث العمل ومن حيث سرعة النمو): قال تعالى ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [سورة يونس: ٣١].

فالله الذي يهب النفس القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها، و يصححها أو يمرضها، و يصرفها إلى العمل أو يلهيها، و يسمعها و يريها ما تحب أو ما تكره.. ذلك ما كانوا يدركونه يومئذ من ملك السمع و الأبصار. و هو حسبهم لإدراك مدلول هذا السؤال و توجيهه. و ما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع و البصر، و من دقائق صنع اللهّ في هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولا و سعة. و إن تركيب العين و أعصابها و كيفية إدراكها للمرئيات، أو تركيب الأذن و

(٣٩) السيد محمد تقي المدرسي. من هدى القرآن، ج١٠، ص: ٤٤، دار محبي الحسين. ط١. ١٤١٩هـ. طهران.

أجزائها و طريقة إدراكها للذبذبات، لعالم وحده يدير الرؤوس، عند ما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس من معجزات العلم في العصر الحديث!. و إن كان الناس يهولهم و يروعهم و يبهرهم جهاز يصنعه الإنسان، لا يقاس في شيء إلى صنع اللّه. بينما هم يمرون غافلين بالبدائع الإلهية في الكون و في أنفسهم كأنهم لا يبصرون و لا يدركون[٤٠]. فأن السمع فيزيائيا ينتهي الى عملية ميتافيزيقية غير مادية او معلومة. وكذا البصر.

٣. يولد الانسان بدرجة الصفر العرفية:

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾. أي أخرجكم من أرحامهن بالتولد و الحال أن نفوسكم خالية من هذه المعلومات التي أحرزتموها من طريق الحس و الخيال و العقل بعد ذلك. و الآية تؤيد ما ذهب إليه علماء النفس أن لوح النفس خالية عن المعلومات أول تكونها ثم تنتقش فيها شيئا فشيئاً[٤١]. وهو ما يثبت النمو المعرفي، المعرفة كانت صفرا ثم تتطور عند الانسان،وهذ لايعني عدم وجود معارف بالقوة تتحول الى الفعل بالمثيرات والمحفزات المعرفية وادوات معرفية مغروزة بالفطرة بها يتطور معرفيا وعقليا.

٤. المرحلة المعرفية المحالة على الانسان:

إنّ للمعرفة مراحل، أعلاها هي تلك المعرفة التي تخص ذات اللّه المقدسة، و التي لا يمكن لأي أحد أن يعرفها أو يطلع عليها غير ذاته المقدسة التي تعرف كنه ذاته المقدسة، و الحديث الشريف المذكور يشير إلى هذا المعنى.

أمّا بقية المراحل التي تأتي بعد هذه المرحلة و التي يمكن للعقل البشري أن يتعرف عليها، هي مرحلة معرفة صفات اللّه بصورة عامة و معرفة أفعاله بصورة

(٤٠) السيد بن قطب الشاذلي. في ظلال القرآن. ج٣، ص: ١٧٨.

(٤١) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص: ٣١٣.

مفصلة، و هذه المرحلة كما ذكرنا ممكنة بالنسبة للإنسان، و المراد من معرفة اللهّ الوصول إلى هذه المرحلة، و الآية[٤٢] مورد بحثنا تحدثت عن هذه المرحلة، حيث أن المشركين يجهلون هذا المقدار من المعرفة أيضا[٤٣].

فإننا نرى القران الكريم يشير الى ان النمو المعرفي له نهاية محددة. وذلك الحد هو عدم تجاوز النمو المعرفي مرحلة معرفة حقيقة الذات الالهية المقدسة. والامتناع هذا عرفناه من خلال قصة سيدنا موسىعليه السلام إذ قد طلب موسى لنفسه الرؤية القمة التي هي فوق كيانه المعرفي. و على هامشها الرؤية البصرية المقترحة من قومه فجاء الجواب «لن تراني» و الأصل رؤيته الخاصة، و هي المناسبة ل «وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ..» دون المستحيلة، فانها مبرهنة البطلان و الاستحالة دون حاجة إلى برهنة حسية[٤٤].

ثم ما هي الصلة بين إمكانية رؤيته تعالى لموسى و بين أن يستقر الجبل مكانه في ذلك التجلي، إلّا أن يكون الجبل في ذلك التجلي مثالا لموسىعليه السلام أنه لا يستطيع التجلي المعرفي القمة للهّ ما دام هو موسى الذي لم يبلغ مبلغ أول العارفين إلّا أن يموت في ذلك التجلّي، ثم لا يفيده الموت أيضا أن يتجلى له ربه في الحالة التجردية البرزخية، فإنما ذلك مخصوص بأول العارفين و خاتم النبيين محمدصلى الله عليه وآله حين «دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى... وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى» (٥٣: ١٢) و لو لم يكن مكلفا باستمرارية هذه الرسالة التي تتطلب مواجهة الخلق لم يخرج عن هذه الحالة التجردية المعرفية القمة، خارقة لكافة الحجب الظلمانية و النورانية بينه و بين اللهّ، حتى حجاب نفسه، فلم يبق-

(٤٢) الاية هي قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٦٧].

(٤٣) الشيخ مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، ص: ١٤٨. الناشر: مدرسة الامام عليعليه السلام. ط١. ١٤٢١ هـ. قم.

(٤٤) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج١١، ص: ٢٩٥.

إذا- حجاب لتلك المعرفة، إلّا ذات اللهّ التي لا ترتفع لأحد[٤٥].

٥. للقين مراحل اشتدادية: وهي ما اشار اليه قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [سورة التكاثر: ٥ -٧].

«اليقين» يقابل «الشك»، كما إنّ «العلم» يقابل «الجهل»، و اليقين يعني وضوح الشيء و ثبوته. و يستفاد من الرّوايات أنّ اليقين هو أعلى مراحل الإيمان و لليقين ثلاث مراتب: الأولى علم اليقين. و الثانية عين اليقين و هي فوق مقام علم اليقين. و الثالثة حق اليقين. و هي أرقى من السابقتين. فالسالك بعد إكمال المرتبة الثانية، و ارتقائه في يقينه بنتيجة رياضاته النفسانية، يصل إلى مقام يصير فيه بصره حديدا و سمعه شديدا، فيرى ما لا ترى عيون غيره من الناس، و يسمع ما لا تسمع آذانهم، و يدرك ما لا يخطر على قلوب أقرانه، إذ ترتفع الحجب، و تزول الأغطية، فيرى الأشياء على ما هي عليه بحقائقها و بواطنها و كما يرى ظواهرها سواء بسواء[٤٦].

فلليقين مراتب، أشارت إليها الآية أعلاه و الآية (٩٥) من سورة الواقعة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾. و هي ثلاثة:

١. علم اليقين: و هو الذي يحصل للإنسان عند مشاهدته الدلائل المختلفة، كأن يشاهد دخانا فيعلم علم اليقين أن هناك نارا.

٢. عين اليقين: و هو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجة المشاهدة كأن يرى بعينه مثلا النّار.

٣. حقّ اليقين: و هو كأن يدخل الإنسان النّار بنفسه و يحسّ بحرقتها، و يتصف بصفاتها. و هذه أعلى مراحل اليقين[٤٧].

٦. موانع النمو المعرفي في القران: وكما

(٤٥) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج١١، ص: ٢٨٤.

(٤٦) محمد بن حبيب الله. إرشاد الأذهان إلى تفسير القرآن، ص: ٨. دار التعارف للمطبوعات. ١٤١٩ هـ. بيروت.

(٤٧) الشيخ مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٢٠، ص: ٤٢٤.

لاحظنا وجود ايات قرآنية تشير الى وجود موانع تؤخر وتعطل النمو المعرفي عند الانسان. نذكر منها ما يلي:

أ. التقليد الاعمى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٣ – ٢٤].

ب. التعصب والتقليد الاعمى يمنع الفكرو العقل: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [سور ةالمائدة: ١٠٣ – ١٠٤].

ج. اتباع الهوى يمنع النشاط العقلي: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [سورة الفرقان: ٤٣ – ٤٤].

٧. القوى المعرفية لدى الانسان: هناك بعض الاعضاء عند الانسان او القوى التي تؤدي الى تزويده بالمعرفة والمعلومات المختلفة وبالتالي تعمل على التطور والنمو المعرفي عند خليفة الله في ارضه ومخلوقه المكرم الا وهو الانسان. وتلك الادوات التي تعد بمجموعها البوابة المعرفية للإنسان – التي اشار اليها القران الكريم –والتي من خلالها ينطلق هذا الكائن الى السمو بعيدا عن ثقل الترابية. وتلك لادوات هي كما يلي:

١. قوة النظر الحسية بالعين: قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾.

٢. قوة السمع الحسي بالأذن: قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾.

٣. قوة اللمس الحسي باليد: قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ

بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[سورة الانعام: ٧].

٤. قوة التذوق الحسي بالسان: قال تعالى: ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [سورة الصافات: ٤٦] و قوله تعالى: ﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[سورة النحل: ٦٦].

٥. قوة الذاكرة: قال تعالى: ﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ [سورة المائدة: ١٣] و قوله تعالى: ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾.

٦. قوة العقل المجردة المعنوية: ويستخدم الانسان العقل للتحليل والاستنتاج وتخطي الحسيات والوصول الى القواعد الكلية العامة. وقد اشر اليه تعالى في كثير من الآيات الكريمة. ولاسيما ف الايات التي ذم بها الله تعالى الذي لايستخدمون العقل ولا يستثمرونه. يقول جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[سورة آل عمران: ٦٥]. ويقول تعالى: ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[سورة الرعد: ٤].

٧. قوة القلب للمعارف الوجدانية: فمثلا تشير الاية ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٧]، إلى سبب هذا اللجاج و التعصب و تقول: {خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ، و لذلك استحقوا أن يكون لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ} أجهزة استقبال الحقائق معطوبة عند هؤلاء... العين التي يرى المتقون فيها آيات اللهّ، و الاذن التي يسمعون بها نداء الحق، و القلب الذي يدركون به الحقائق، كلها قد تعطّلت و توقفت عن العمل لدى الكافرين. هؤلاء لهم عيون و آذان و عقول، لكنهم يفتقدون قدرة «الرؤية» و «الإدراك» و «السمع». لأن انغماسهم في الانحراف و عنادهم و لجاجهم، كلها عناصر تشكل حجابا أمام أجهزة

المعرفة [٤٨].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[سورة البقرة: ٢٦٠]، و يزداد يقيني بسبب المشاهدة بما آمنت به كما في رواية الكافي [٤٩].

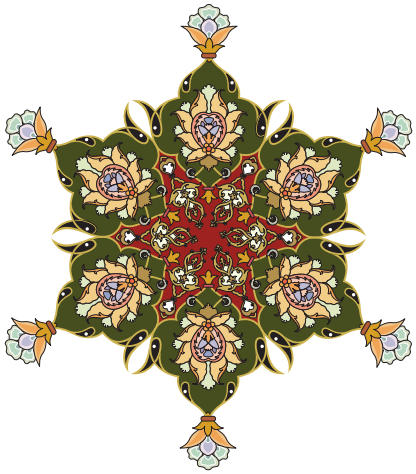

(٤٨) الشيخ مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١، ص: ٨٦.

(٤٩) محمد جواد البلاغي. آلاء الرحمن في تفسير القرآن. ج١، ص: ٢٣. مؤسسة البعثة. ط١. ١٤٢٠ هـ. قم.